قصة قصيرة

الذئب

عبد الرحمن سيدو(*)

عو.. وو..... عواء

نصبت كلابُ القطيع الثلاثة آذانها، قفزتْ بضعَ خطوات، توقّفت وأخذت تحدّق إلى سفح المنحدر الّذي بانت صخوره الرماديّة غامقةً تميل للسواد. اشتدَّ هبوبُ الريح، ثار أنينُ ما بين الوديان والأجمات. أنينٌ دامعٌ هو. رفعت الأغنام رؤوسها عن العشب وبدأت تدور بجنون حول الحمار الأبيض وقد انطفأ البريق الهادئ في عيونها، ودون أن يتحرّك الراعي صرخ بالكلاب مرّة ثمّ تابع تمدّده.

هاجم الذئبُ القطيعَ. أحسّت الكلاب أنّها لا تملك أمام اندفاع القطيع المذعور إلّا أن تلاقي الذئب.. فانتفضتْ وانطلقت تجاهه، وهي تذكر أنّ عواء الذئب هذا لا يشبه أيّ عواء آخر.. عواء اخترق عظامها وأوقد في دمائها نارَ رهبة تذيب الطحال، لذا بدأ جريها متردّداً، وكأنّ هناك يداً خفيّةً تكبّل الخطوات وتقسرها على التباطؤ.. أمّا الحمار الأبيض الجليل فلم يبارحْ مكانه بل اكتفى بأن حمل رأسه الضخم وأخذ ينهق نهيقاً مذعوراً متواصلاً ويدقّ الأرض بحوافره.

«هي معركة حاولتُ أن أتجنّبها»، قال الذئب. «كمنتُ للأرانب، طاردتُ البطّ في أطراف القرى، دفعتُ ببوزي إلى الجدول آملا التقاطَ سمكةٍ ما، لكنّ كلّ جهودي تاهت في الهباء، هو الجوع يا أحباب، يحيل الوادعَ إلى وحش كاسر، والرقيقَ إلى غليظ آبق، والمسالمَ إلى مقاتل صلب.» وتذكّر..

تذكّر لقاءاته السابقة بهذه الأشياء الشرسة الّتي كانت تمنع عنه طعامه عندما كان جرواً يجري خلف أمّه الميتةَ الّتي أوصته وقتها أنْ:

«بنيَّ قاتلْ من أجل طعامك، لا ترحمِ الراعي الّذي لا يبالي بجوع كلابه وموتها.. اعلكْ خصيتيْه ببأس ثمّ انتظر موته وأنت هانئ..

بنيَّ.. في الجبال إذا أراد أحدٌ أن يمدح آخرَ يقول له أنت ذئب.. يقصد أنّه مقاتل باسل.. كنْ كذلك».

هو يعرف أنّهم يريدون منه أن يموت. يموت قهراً.. يموت جوعاً.. لا فرق. ويعرف أنّ الكلاب تموت أيضاً وهي تقاتل بحماقة دفاعاً عن أغنام لا حصّةَ لها فيها.. نعم، هو يعرف، لذا تخيّل نفسه وقد حاصرته الكلابُ من كلّ جانب، تنهشه، تمزّق لحمه، ثمّ تلقي بجثّته في الهواء، لتعدو منتشية نحو الرعيان..

«إنّهم يأتون»، قال الذئب..

«إنّه مقاتل باسل يتقدّم دون تردّد»، قالت الكلاب..

«دعهم يقتتلون»، قال الراعي، وقد رسمت شفتاه بسمة..

وكموجة مندفعة تداخل الذئبُ بالكلاب.. دفع أظافره الحادّة في بطن الأوّل ومرق كسهم. أخذ يصعد، يهبط، يدور، يتقدّم، يتراجع ويجأر.. نبح الكلبُ المطعون، تلوّى دون أن يتقدّم خطوة وهمد. ومن جانبه المبقور راحت الدماء تندلق، وفي صدره، تقطّعت الأنفاس. وبهدوء، بعيداً عمّا يدور حوله من قتال شرس، قتالٍ كان سبّاقاً إليه، ها هو ينطفئ، وقد انقلب على ظهره بانكسار كي يريح جسده وإلى الأبد من كلّ عناء..

استمرّ القتال ضارياً، أجّجه مصرعُ الكلب باكراً، الأسنان تُمزّق، الأيدي تتشابك، الأرجل لا ترجع إلّا وهي تسحب شيئاً من الجلد واللحم، الأظافر تستحيل إلى شفرات حادّة، تفتح في كل ضربة ثلماً طوليّاً، يندفع منه الدم ويسيل ملطّخاً هذه المخلوقاتِ المتصارعةَ. خفت النباح، لم يبق منه إلّا بقايا لهاث. سكنت

(*) صدرت له ثلاث مجموعات قصصيّة.

الريح. كانت الأسنان والأظافر وحدها تنشط بعافية، والراعي يراقب القتال ببرود وكأنّ الأمر لا يعنيه في شيء، يراقب وهو ينقل حبّات السبحة الكبيرة بين أصابعه. رفع الحمار رأسه وخفضه بنزق، وكأنّه يهرب من رؤية ملحمة هو شاهدٌ فيها، ثمّ أخذ يتطلّع إلى الأغنام، رآها وقد التصقت بطونها بالأرض، تبحث بذعر فيها وكأنّها تودّ أن تغور في الأرض المعشبة. ثمّ التفت الراعي وبدأ بتحريك ذيله وكأنّه يطرد هذه الرؤى المزرية. وإذا هو يعود إلى قضم العشب القصير، يدفن عينيه فيها، ويتجنّب متابعة القتال حتّى النهاية.

غابت الشمس. اكتست الجبال والأجمات والوديان بعتمة خفيفة. ومن بقع بعيدة كان النرجس يرسل عطراً نافذاً، تحمله الريح الهادئة وتوزّعه على قمم الجبال المكلّلة بالثلوج، علّه يداري الجراحات الموزّعةَ في الأجساد المدمّاة. أُصيب الكلبان بجروحٍ عميقة، جراح في الوجه واليدين والأرجل. وشيئاً إثر شيء راحت ضربات الكلبين تتباعد، تخطئ، ترتخي على جسد الذئب دون أن تغور في اللحم أو الجلد. بان عليهما الإرهاقُ نتيجةً للنزف الحادّ والآلام الكبيرة. شدّد الذئب ضرباته، سدّدها بدقّة وهو يتذكّر وصيّة أمّه: «بني.. اضرب بعنف حين يرهق خصمك». ازداد الضرب عنفاً؛ أخذ يتتالى على المناطق الأكثر ارتخاءً: العنق، مقدّمة الأضلاع، العيون. عاد إلى الذئب صوتُه الرهيب. أخذ العواء يتعالى قويّاً، شديداً، بين الضربة والأخرى. ترنّح أحد الكلبين وقد قُلعت إحدى عينيه، ولّى هارباً صوب الوادي المكتظّ بأشجار البلّوط والتوت البرّي وهو يطلق نباحاً خافتاً..

توقّفا قليلاً... كلّ من ناحيته.

هما وحدهما الآن:

ذئب جريح وكلب جريح.. في لقاء آبد..

مخلوقان محاصران مكابران وجائعان..

حدّق كلّ منهما في عيني الآخر تحديقاً قويّاً، وكأنّهما يتمّمان قتالهما الهائل بصمت. اشتعلتْ في الأحداق لغاتٌ مجهولة منسيّة، لغاتٌ لا يقدر على فهمها إلّا مخلوقان محاصران جريحان، يعصف الجوع بأحشاء أحدهما، وتوقد الجراحُ في روح الآخر شراسةً لا حدود لها، وكان كلٌّ منهما متأكّداً أنّ هذا اللقاء سيكون الأخير. هو لقاء حتّى الموت.. قتال حتّى الموت.

تلفّت الكلب حوله.. الراعي هناك يتمدّد بكسل وترف. خُيِّل إليه أنّ الراعي سعيد جدّاً، وقد يبدأ بعد لحظات قلائل بالعزف على مزماره.. ازداد مقتاً من لامبالاته فصاح:

«أيّها النذل الّذي أقاتل عنه وأموت»..

وللحظات كان من الممكن للمرء أن يتخيّل هذين المتصارعين وقد كفّا عن القتال ويستعدّان للمصالحة.. لكنّهما.. ها هما يلتحمان.. دار الذئب حول الكلب بخفّة وتناوله بضربة في مقدمة أضلاعه.. انطلق إثرها صوتٌ هائل ردّدته الصخور لحظاتٍ ثمّ انمحى بسرعة في الوديان. تراجع الكلب خطوات وكأنّه يستجمع قواه، تقدّم، وهاجم من الجانب الأيمن، أرسل أسنانه القاطعة بين رجلَي الذئبِ الّذي قفز بخفّة متجاوزاً الهجمة، وبومضة البرق غرز أسنانه البيضاء اللامعة في عنق الكلب وأخذ يضغط، يطبق، ويضغط، ويزيد في الإطباق. وكشريط سينمائي راحت تدور في مخيلة الكلب أحداث صباه، طفولته، شبابه، جراحِه، قتالاتِه الّتي لا تحصى، الذُّؤبان الّتي قتلها والثعالب والكلاب، الدم، اللهاث المتقطّع، الراعي الّذي يقتل عنه، وهذا الذئب الّذي لا يرحم ويقاتل ببسالة.. عظامه بدأت تطقطق بين أسنان الذئب، تراخى، شعر بأنّه يرتفع عالياً ثمّ.. ثمّ ينخبط بالأرض، يُجرجر بقسوة، تُجمّد أنفاسه.

شعر الذئب بأنّ كلّ شيء قد صار خفيفاً طوعَ يديه، فبدأ عواؤه الرهيب يقوى، يدوي، وأخذت جوانبه تضجّ بقهقهة عظيمة. توقّف فجأة. اقترب من جثّة الكلب، حاذاه، تشمّمه بانتعاش، نقره على رأسه، مرّر بيده على عنقه الجريح الممزّق. وعندما لم يتحرّك الكلب، دار حوله ثلاثَ دوّرات ثمّ توقّف قبالته وأطلق عواءً مريراً هذه المرّة، وكأنّه يبكيه. دموعٌ حقيقيّة راحت تسيل من عيون الذئب وتغسل عنق الكلب. تناوله، سحبه بهدوء إلى أجمة خضراء، غطّاه بعيدان السنديان، دار حوله ثلاثَ دوراتٍ أخرى باحترام.. وابتعد.. بسرعة ابتعد. رفع رأسه: عو... وو... عواء...

حاصر القطيعَ بهجماته. لا شيء يقيّده، لا شيء يحدّه، هو سيّدُ اللحظة والمسافات والكثافات. التقط غنمة ثانية، ثالثة، عاشرة، جرح، ذبح، أكل، أحسّ بأنّه يأكل عن جوعِ كلِّ الأيّام. شدّ بدنه، هاجم الراعي وصوت أمّه يدقّ مؤخّرة رأسه:

«بنيّ.. لاترحم الراعي الّذي لا يبالي بموت كلابه.. اعلك خصيتيْه ببأس، وانتظر موته بسعادة...».

حلب